الأدب والحياة

الأستاذ الدكتور شوقي عبد الحليم حماده

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد النبى الكريم وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه الى يوم الدين ٠

« وبعد » فمما لا ريب فيه أن رقى الأمم وتقدمها لا يقاس في الحقيقة بما تشيده من مبان فخمة ولا بما تستعمله من وسائل الحضارة الحديثة ٠ فهذا أمر ميسور لا يكلف الا شيئا من المال ٠ انما يقاس رقيها بما تنتجه من عطاء في مجال الفكر أو العلم وهذا أمر لا يقدر عليه الا الذين اخلصوا للحقيقة ولخدمة الانسانية كل الاخلاص ٠ ولهذا تعنى الأمم الحية الراقية بأدبائها ومفكريها وعلمائها أشد العناية ٠ لأن هذه الفئة يمكنها أن تساهم في توعية الناس وتعميق ادراكهم وفهمهم للحياة وجعلها سهلة سعيدة ٠ وهذه أشياء تسعى اليها البشرية عبر تاريخها الطويل ٠

والأمة العربية ـ بحمد الله ـ لها تراث قديم يعتبر ركنا من أركان الحضارة الانسانية الحديثة ٠ الا أن العطاء الفكرى والعلمى يتفاوت بين فرد وفرد وأمة وأمة حسب الطاقات والامكانيات ٠

ولهذا رأينا بعض الأمم الراقية تدعو كتابها ومفكريها بمهندسي الحياة ٠ وهذه التسمية تعنى أن تلك الأمم تقدر أدباءها ومفكريها حق التقدير وتفهمهم حق الفهم ٠ كما أنها تعنى أن أولئك الكتاب والمفكرين لم يستحقوا هذه المنزلة العظيمة الا لأنهم شاركوا في صنع هذه الحياة بتعبيراتهم الفنية الجميلة ٠

مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الخامس، مطبعة الأمانة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م

ثمـرة الأدب :

الحقيقة أن الأدب ليس للعبث والمتعة الشـخصية فحسب ٠ بل لا بد له من هدف وغاية يرنو اليها وينادى بها ٠ لأنه التعبير الحر عن واقع الأمة في آمالها الكبيرة ومثلها من وراء التصوير الصادق لواقعهـا فيما يشف عنه من امكانيات أو يوحى بها ٠

والأديب هو لسان الحياة والمجتمع وعليه توضـيح ما في هـذه الحياة وما في هذا المجتمع من عقائد ومبادىء ومشكلات لأنه ابن لهذه الحياة وفرد من ذلك المجتمع ٠ بل هو أعظم مسئولية لأن عنـده الأداة التى يستطيع بها المشاركة وليست مع غـيره هـذه الأداة ٠ ولأن معه أدبا وفنا ليسا لدى سواه يستطيع بهما وصف الحياة بصدق وتوضيح العقيدة باخلاص وتوجيه المجتمع الى ربه الذى أسبغ عليه نعمـه ظاهرة وباطنة ٠ فلا بد اذن من التزامه بواجبه تجاه عقيدتهومجتمعه٠ وليس الالتزام شيئا مناقضا للحرية بلّ هو منظم لها ٠ والحرية بدون التزام فوضي ٠

فالانسان المفكر والاديب مثلا لم يكن له الاختيار في وجـوده في هذا العالم وليس سببا مباشرا في اوضـاعه الراهنة ٠ لكنه ملزم بأن يتخذ موقفا من هذه الأوضاع ٠ وفي نفس الوقت تتأكد حريته في اختيار الوسائل في كل موقف وفي نوعية الموقف ذاته وفي اختياره للجماعة التى يعمل معها وللجماعة التى يعمل ضدها ٠ ووسائل المناصرة أو النضال هى أيضا تدخل في اطار مفروض عليه ولكنها متفتحة عـلى انواع كثيرة من الاختيارات ٠ فالحرية المطلقة بالنسـبة للأديب اذن شيء وهمى ٠ والالتزام في الوقت نفسـه دون حرية عبودية وغباء ٠ لأن الانسان اجتماعى بطبعه اى أنه مسئولّ لأنه حر وملتزم لأنه يتحمـل مسئولية حريته ٠ وهذا شيء لا بد أن يضعه الأديب نصب عينيه ٠

والاديب المسلم خاصة لا بد أن يأتى انتاجه الفكرى متـــأثرا بأوضاعه التاريخية لأن شخصيته تستمد جذورها من الاسلام ٠

ان الأديب العربى كان خير مصور لحياة العـــرب السياســـية والاجتماعية والخلقية وأودع للزمن صحائف حياته مسجلة تتداولهـــا الاجيال ٠ وقد نظمت تلك الصفحات من الصـــفات التى اعتز بهـا العرب كالشجاعة وحماية الجار والكرم الذى لا يبقى على شيء رغبة في الفوز بالذكر والشكر ٠ ولم تزل أمثال العرب تذكر حاتما الطـــائى رأس الكرماء ولم يزل لومه لمـاوية زوجته حين تأخـــذ عليه اسراف فيقـول لها :

أماوى أن المـــال غـاد ورائح
ويبقى من المـال الاحاديث والذكر
أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

ولم يزل يذكر شعر زهير وهو يرن في سمع الأجيال يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف حين تحملا من مالهما الخاص ديات القتلى من عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء التى مكثت، أربعين سنة أكلت خلالها شباب القبيلتين وذلك ما يصوره زهير في مدحهما بقوله :

تداركتما عبسا وذبيان بعد ما
تفانوا ودقوا بينهم عطـــر منشم

« ومنشم هذه : امرأة ضرب بعطرها المثل في الشؤم فقيل : اشأم من عطر منشم » ٠

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا ذلك في كل العصور الادبية :

وعلى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نجـ ن فائدة الأدب في هذه الأمـــور :

١ ـ تسجيل الأحـــداث السياسية والاجتماعية والاقتصـــادية والحربيـــة ٠

٢ ـ تسجيل الشعر لأسماء الأماكن التى لم يسجلها التاريخ ٠

٣ ـ تسجيل الآراء والنزعات والاتجاهات للفرق والطـــوائف الدينية وغيرها ٠

٤ ـ نقل التجارب الانسانية عبر الأجيال لافادة البشرية ٠

٥ ـ اذكاء روح التوثب والتقدم والوصول الى الأفضل بصـــفة مســـتمرة ٠

٦ ـ توفير الوقت والجهد للآخرين سواء اكانوا معـــاصرين او تالين ٠

٧ ـ التعبير عن مشاعر اللذة بغرض استمرارها أو الاســـتزادة منهـــا ٠

٨ ـ ازالة مشاعر الالم بالتخفيف منها أو تحويلها ٠

٩ ـ ربط مشاعر الجماعة والعمل على التفافها حول موضوعات وأهداف موحدة ٠

١٠ ـ الارتفاع بالغرائز الانسانية وترقيتها أو تحويلها لتكون عـوامل سمو ٠

١١ ـ فتح مجالات حضرية جديدة أمام البشرية وتعميق فهمنـا للحيـــاة ٠

وكم للأديب غير ذلك من مهمة فهو يربى العقول والمشاعر ويهذب الطباع ٠ وهو لسان الدعاة الى الله وهداة البشرية الى الخير وهـــو وسيلة المصلحين الذين وهبوا حياتهم لاصلاح النفوس ٠
على التأثير والاقناع اذا ارسلتها نفس مؤمنة بها منفعلة معها ٠
وما أقدر الكلمة الأدبية المدعمة بالآية القرآنية أو التوجيه النبوى

مجالات الأدب تشمل الكون كله :

لقد اثرى تراثنا القديم الحضارة الانسانية بلا ادعاء أو مكابرة٠ تلك حقيقة لا ريب فيها ٠ فأبن سينا وابن رشد والخوارزمى والرازى وابن النفيس وغيرهم قد قدموا للانسانية ما يجعلها تدين لنا به ٠

ولكن عندما توقفت ثقافة العرب الاسلامية عن النمو بفعل عوامل من صنع أعداء أمتنا فقد أصبحت لا ترضي نفسها ولا غيرها ٠

وبالنسبة لما لدينا في الحاضر فنحن في طور الأخذ من الآخرين أكثر من طور العطاء ٠ وهذا واقع علينا أن نعترف به في شجاعة ٠ وكما أعطينا في الماضي علينا أن نأخذ في الحاضر على شرط الا نكون مجرد ببغائية تعيد صدى أصوات الآخرين ٠ علينا أن نهضم ما نأخذ وننمثله وان نعيد تشكيله ليتوافق مع بيئتنا وذاتيتنا واضعين نصب أعيننا مقوماتنا الأخلاقية والروحية ٠

وبهذا يمكننا ان نقدم شيئا هاما ومجددا للتراث الانسانى ٠

فالتنكر للذات مسخ للشخصية والاعراض عن أوضاع العصر تدمير للشخصية ايضا ٠

ومما لا شك فيه أن فن القصة القصيرة الذى نضج واشتد عوده في الأدب الحديث فن عربى قديم يتمثل ـ اظهر ما يتمثل ـ في تلك المقامات الرائعة التى صاغها بديع الزمان الهمذانى والحريرى من بعده وخلقا بها نموذجا انسانيا خالدا في الأدب العالمى وهو نموذج الأفاق الذكى الحاضر البديهة الذلق اللسان القوى الخيال الذى لم يجد له مكانا في مجتمع فاسد مضطرب القيم فاضطر أن يحتال لكسب قوته بشتى الحيل مستغلا غفلة العوام وفساد الحكام ٠

هذا النموذج الانسانى عرفه الأديب الأسبانى بعد أدبنا العربى٠ وأغلب الظن ان الأدباء الأسبان عرفوه من النماذج العربية ثم انتقل

من الادب الأسبانى الى سائر الآداب الاوربية فيما عرف في تلك الآداب باسم « قصص الصعاليك » فلا مجال اذن لانكار ذلك في الادب العربى ٠

وعند النظرة الفاحصة نرى ان للأدب مجالات عـــديدة ووظائف لا تقتصر على ناحية من النواحى ولا على جانب من الجوانب ٠ فهـــو يتناول العقيدة والعواطف الانسانية والحياة الاجتماعية والســـياسية والقيم الأخلاقية والروحية ٠ فالحياة كلها مجال للأدب ٠

فلم يعد من الممكن القول ان هناك بعض موضوعات تصلح للتناول وبعضا آخر لا يصلح فقد اتسع ميدان الادب اتساعا عظيمـــا ٠ وهاهى بعض تلك المجالات :

١ - العقيـــدة :

لقد عبر الأدب عن العقيدة منذ وجد الانسان بل لقـــد نشـأ في ظلها ٠ وما زالت هذه العلاقة الوثيقة مرتبطة اشد الارتباط حيث قام الادب بنشر الدين فسجل دعوته وبث شـــعائره بين البشر وشرح شرائعه ٠ وامام اعيننا الدين الاسلامى الحنيف ٠ فالقـرآن الـكريم في الذروة من الاعجاز والتسامى البيانى ٠ والنبى صلى الله عليه وســلم في قمة الفصاحة والبلاغة ٠ وقد اعتمد الاســـلام على الادب في نشر دعوته واعتبره عنصرا فعالا يجب ان يقوم بدوره كما ينبغى ٠ فقـام الخطباء ونهض الشعراء يشرحون هذا الدين ويناضلون عنه يجادلون المرجفين ويعالجون الرذائل ويهدون الناس الى الطريق الأقـوم ٠ بل ان هدف كل من الدين والادب تصفية النفس وتهذيب الجنس البشرى بطريق اداء الشعائر المقدسة من اثارة العـــواطف النبيلة والأخيلة الجميـــلة ٠

وفي أدبنا العربى نماذج عديدة لتوضيح ذلك نقتصر منها على

نموذجين أولهما نكعب بن زهير في عصر صدر الاسلام حيث يقـــول في دعـــوته الى الله :

رحلت الى قومى لأدعـــو جلهم
الى أمر حزم أحكمته الجـــوامع
سأدعوهم جهدى الى البر والتقى
وأمر العلا ما شايعتنى الأصـــابع
فكونوا جميعـــا ما استطعتم فانه
سيلتبسكم ثوب من الله واسع

وثانيهما للشاعر هاشم الرفاعى في العصر الحديث حيث يقـــول في قصيدته بعنوان : شباب الاسلام :

ملكنا هـــذه الدنيا القرونا
وأخضعها جـــدود خالدونا
وسطرنا صحائف من ضـــياء
فما نسي الزمان ولا نسينا
حملناها ســـــيوفا لامعات
غداة الروع تأبى أن تلينا
اذا خرجت من الاغمـــاد يوما
رأيت الهول والفتح المبينا
وكنـــــا حين يرمينا اناس
نؤدبهم أباة قادرينـــــا
وكنـــا حين يأخـــذنا ولى
بطغيان ندوس نه الجبينـــا
تفيض قلوبنا بالهدى بأســـا
فما نغضي عن الظلم الجفونا
وما فتىء الـزمان يدور حتى
مضي بالمجد قوم آخـرونا

وأصبح لا يرى في الركب قومى
وقد عاشـــوا أئمته سنينا
وآلمنى وآلم كل حـــــر
سؤال الدهر أين المسلمونا ؟
ترى هل يرجع الماضي ؟ فانى
أنوب لذلك المـــاضي حنينا
بنينا حقبة في الأرض ملكا
يدعمه شـــباب طامحونا
شـــباب ذللوا سبل المعالى
وما عرفوا سوى الاسلام دينا
تعهـــدهم هأنبتهم نبـــاتا
كريما طاب في الدنيا غصـــونا
هم وردوا الحياض مباركات
فسالت عندهم ماء معينـــا
اذا شهدوا الوغى كانوا كماة
يدكون المعاقل والحصـــونا
وان جن المساء فلا تراهم
من الاشفاق الا ســـاجدينا
شـــباب لم تحطمه الليالى
ولم يسلم الى الخصم العرينا
ولم تشهدهم الأقداح يوما
وقد ملأوا نواديهم مجـــونا
وما عرفوا الأغانى ماثمات
ولكن العلا صيغت لحونا
وقد دانوا بأعظمهم نضالا
وعلما لا بأجر بهم عبـــثا !

فيتحدون اخـــلاقا عذابا
ويأتلفون مجتمعا رزينـــا
فما عرف الحلاعة في بنات
ولا عرف التخنث في بنينا
ولم ينشدقوا بقشور علم
ولم يتقلبـوا في الملحدينا
ولم يتبجحـــوا في كل أمر
خصير كى يقـــال مثقفونا
كذلك أخرج الاسلام قومى
شـــبابا مخلصا حرا أمينا
وعلمه الكرامة كيف تبنى
فيأبى ان يقيد او يهونا
دعـــونى من أمان كاذبات
فلم أجد المنى الا ظنـــونا
وهاتوا لى من الايمان نورا
وقووا بين جنبى اليقينـــا
أمد يدى فأنتزع الرواسي
وابن المجد مؤتلفا مكينـــا

٢ – العواطف والمشاعر النفسية :

وهذه من أبرز مجالات الأدب فميزاته أنه يوجد العبـــارة التى تعوزنا للتعبير عما في نفوسنا • فالأديب يعبر عن عواطفنا ومشاعرنا كما أنه يحاول ان يوصل انفعالاته ومشاعره الينا •

ومن النماذج الطاهرة النظيفة على ذلك في عصر صدر الاسلام قول خبيب بن عدى :

!قد جمع الأحزاب حولى والبوا
قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدى العداوة جاهدا
على لانى في وثاقى بمضيع
وقد جمعوا ابناءهم ونساءهم
وقربت من جذع طويل ممنع
الى الله أشكو غربتى ثم كربتى
وما ارصد الاحزاب لى عند مصرعى
فذا العرش صبرنى على مايرادبى
فقد يضعوا لحمى وقد ياس مطمعى
وذاك في ذات الاله ولم يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع
وقد خيرونى الكفر والموت دونه
وقد هملت عيناى من غير مجزع
وما بى حذار الموت انى لميت
ولكن حذارى حجم نار ملفع
فلست أبالى حين اقتل مسلما
على اى جنب كان في الله مصرعى
فلست بمبد للعدو تخشعا
ولا جزعا انى الى الله مرجعى

ومن النماذج في العصر الحديث قول الشاعر محمد المجذوب :

يقـولون : مع اى الفريقين تضلع
فلم يبق للأحجام والصبر موضـع !
هنا « عنتر » يزجى بقـــايا فلوله
وثم « فـــلان » خلفه نتجمع

وأنتم دعاة الحق أولى بنصره
اذا الناس خانوا الحق جبنا وضيعوا
فقلت : انما والله ما في قلوبنا
لغير جلال الله والحـــق موقع
وكل خـــلاف بيننا فلأننـــا
وعيناه في ضـوء الكتاب ولم تعـوا
اذا ما دعـــوناكم اليه جمحتمو
وبلغتمو في ما يســـوء ويشنع
وقلنا : هلموا نعمل في الارض شرعه
فقلتم : فلان لا سواه المشرع
وفقـــد فاتكم أن ليس للخلق ماتك
ســوى الله يقضي فيهم ويشرع
وكل احتكام في الحياة لغـــيره
هو الشرك لابل دونه الشرك أجمـع

الى أن يقـــول :

فقد تصبح الدنيا لابليس شـيعة
ونحن لغـــير الله لا نتشـــيع
أنعدل بالله العظيـــم وشرعه
أضاليل يجلوها الخداع فتلمع
فأين اذن عهد قطعنـــا لربنا
بأنا له دون البرية خضـــع
بلى نحن جند الله بعناه واشترى
فلا هو يعفينا ولا نحن نرجـع

٣ – القيم الاخلاقية والانسانية :

الحقيقة أن كل أدب ليست وراءه غاية خلقيـــة لا بد ان يكون كسيحا ضارا • لكن أصدق الفضائل ما نبعت من التصور الالهى للحق الذى يعلم الدقيق والجليل ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض • ولقد هدانا الدين الاسلامى العظيم الى الخير وحـــذرنا من الشر ورسم لنا صراطا مستقيما يجب علينا سلوك محجته •

ومن النماذج الصادقة على ذلك قول امراة مسلمة في عصر صدر الاسلام وقد تغيب زوجها في معارك الجهاد في سبيل الله •

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه
وارقنى الا ضجيع الاعبـــــه
يسر به من كان يلهو بقربه
لطيف الحشا لا تجتويه اقاربه
فوالله لولا الله لا شيء غـــيره
لينعض من هذا السرير جوانبه
ولكننى اخشي رقيبـــــا موكلا
بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبـه
مخافة ربى والحيـــاء يصدنى
واكرم بعلى ان تنال مراكبـــه

ومن ميادين الادب ومجالاته الطبيعية والكون والحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحياة الفكرية والثقافية وتوسيع المـدارك وزيادة التجارب ويطول بنا الحديث لو ذكرنا النماذج الدالة على ذلك•

لكننا نستطيع ان نقرر ان الادب من وجهة النظر الاسلامية يملك من الزاد الفكرى العظيم والثقافة العريقة والنماذج الانسانية الفـذة ما يقف امامها العقل مكبرا دهشا•

والأدب لا يمكن أن ينفصل عن المجالات الحيوية في هـذه الحياة باعتباره رسالة اصلاحية وليس متعة شخصية فحسب ٠

من أجل ذلك كله ينبغى على الادباء والشعراء العرب المسلمين ان يجعلوا عصر صدر الاسلام نصب أعينهم ليستقوا من معينه الفياض ويرتشفوا من ينبوعه الصافي حتى تكون شخصيتهم متميـــزة وقائده ورائدة كما أراد الله لهذه الأمة أن تكون وأن يستجيبوا لله وللرسول اذا دعاهم لمـا يحييهم كما استجاب الأدباء والشعراء في عصر النبـــوة والخلفاء الراشدين ٠

وبهذا تستعيد الامة الاسلامية عزتها المسلوبة وكرامتها المفقودة فهلّ من مدكر ؟

أرجو أن يكون ذلك ان شاء الله ٠

ا٠د٠ شوقى عبد الحليم حماده

عميـد الكليـة

بعض مراجع البحث :

١ ـ الأدب الهادف ـ محمود تيمور ٠

٢ ـ الأدب وفنونه ـ د٠ عز الدين اسماعيل ٠

٣ ـ الأدب في عالم متغير ـ د٠ شكرى عياد ٠

٤ ـ الاسلام والشعر ـ د٠ يحيى الجبورى ٠

٥ ـ الاسلامية والمذاهب الأدبية ـ د٠ نجيب الكيلانى ٠

٦ ـ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ـ للمرزبانى ٠

٧ ـ تذوق الأدب ـ محمود ذهنى ٠

٨ ـ تيارات أدبية بين الشرق والغرب ـ د٠ ابراهيم سلامه ٠

٩ ـ ديوان هاشم الرفاعى ٠

١٠ ـ شعر الدعوة الاسلامية ـ د٠ عبد الرحمن رأفت ٠

١١ ـ همسات قلب ـ للشاعر محمد المجذوب ٠

١٢ ـ وظيفة الأدب بين الالتزام الفنى والانفصام الحالى ـ د٠ محمد النويهى ٠